دلالة الاضمار وعلاقته مع المرجع في تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (١٢٩٦ هـ ـ ١٣٩٣هـ)

م.د. قاسم علي دويج
وزارة التربية - المديرية العامة لتربية واسط
مديرية تربية النعمانية

المقدمة

تفسير التحرير والتنوير من الكتاب المجيد للعلامة التونسي محمد بن الطاهر بن عاشور، يقع في ثلاثين جزءاً، سماه مؤلفه بهذا الاسم لأنه كان يقصد به تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد ، حفظ القرآن في سن مبكرة في جامع الزيتونة في تونس... حاول وضع منهجٍ جديدٍ وطرح روية تجديدية معاصرة، وجعل جامع الزيتونة على غرار جامع الأزهر في مصر، وأنشأ جمعية .لدراسة العلوم الدينية وغيرها يعتبر محمد بن طاهر بن عاشور رائداً من رواد المدرسة التجديدية التي أرادت أن تسير على الرؤيا التجديدية في القراءة البشرية للقرآن الكريم وإنزال آيات الواقع وفقه المقاصد ... أي يمكن لنا أن نفهم القرآن الكريم بقراءة بشرية تراعي فقه الواقع فجاء كتاب التحرير والتنوير ليجعل رؤية العلماء للنص القرآني قراءة بشرية لنص إلهي. فالقرآن الكريم يشمل كل الأزمنة ولا يحدد بزمن معين وفي بحثنا هذا تناولنا جانباً من جوانب اللغة التي أشار إليها العلامة محمد بن الطاهر وهي دلالة الإضمار وعلاقته بالمرجع فجاء في مبحثين

أولهما: تقدم الإضمار على المرجع، حيث أشار فيه إلى مواضع التقديم ومواضيع التأخير في حين تناولت في المبحث الثاني: عدم التطابق بين الاضمار والمرجع حيث تعرض العلامة بن عاشور بشكل مستفيض لبعض مواضع عدم التطابق بين الإضمار والمرجع، ذاكراً الأسباب والأغراض والمسوغات التي دعت إلى ذلك، بعد ذلك كانت الخاتمة وفيها نتائج البحث المتواضع بعدها قائمة المصادر التي استقيت بحثي منها أسأل الله أن يوفقنا لما فيه صالح أنفسنا. ومن الله التوفيق.

Research submitted by the researcher

M. Dr . Qasim Ali Dowaij
The Republic of Iraq
Ministry of Education
General Directorate of Education Wasit
Numaniyah Directorate of Education

search title

The significance of Al-Admar and its relationship with the reference in the interpretation of Tahrir and Enlightenment by Al-Taher bin Ashour (١٢٩٦ AH - ١٣٩٣ AH)

Introduction

The interpretation of the liberation and enlightenment of the poem of the Tunisian mark Mohamed Ben Taherin Ashour, is located in thirty parts, the author called this name because it was meant to liberate the good meaning and enlighten the new mind of the interpretation of the glorious book mark Ben Ashour, keeping the Koran at an early age in the mosque Zitouna in Tunisia. .. tried to develop a new curriculum and raise the spirit of modern renewal, and make the mosque Zaytouna similar to the mosque of Al-Azhar in Egypt, an association to study religious sciences and others.

Mohammed bin Taher bin Ashour is a pioneer in the pioneers of the school of innovation, which wanted to walk on the vision in the human reading of the Holy Quran and the demarcation of reality and the meaning of the purposes ... Which can we understand the Koran human readers take into account the jurisprudence of reality came the book of liberation and Altnir to make the scientists The text of the Koran is a human reading of the text of my God. The Holy Koran includes all the times and does not specify a specific time and in this research dealt with some aspects of the language referred to by the mark Mohammed bin Tahir is a sign of the insensitivity and accompanied by references came in two sections first of the introduction of the reference to the reference, Themes The presentation and the subjects of the delay, while dealing in the second subject of the lack of correspondence between the references and references where the mark Ben Ashour host of some of the subjects of mismatches between the pronoun and reference, citing the reasons and purposes and arguments that called for it, after that was the conclusion and the results of the modest search after the list of sources that I need my research to ask God to help us in what is good for ourselves. It is God's success.

المبحث الأول

تقدم الاضمار على المرجع

الأصل مَنْ يتقدم على الضمير، وذلك على أنواع هي[1]:

الأول: تقدم في اللفظ والتقدير، نحو قوله تعالى: (وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ) يس:٣٩.

الثاني: تقدم في اللفظ دون التقدير، نحو قوله تعالى: (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ) البقرة: ١٢٤.

الثالث: تقدم في التقدير وفي اللفظ، نحو قوله تعالى: (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ) طه: ٦٧.

لأن (إبراهيم) مفعول، فهو في نية التأخير، و(موسى) فاعل، فهو في نية التقديم. ولكن ((قد يخالف الأصل فيؤخر المرجع في عدة مواضع))[2].

وتلك المواضع التي ذكرها النحويون والتي يتقدم فيها الضمير على مرجعه هي كما يأتي[3]:

الأول: أن يكون الضمير مكملاً معمول فعل أو شبهة إن كان المعمول مؤخر الرتبة، نحو: (ضَربَ غلامَهُ زيدٌ)، (غلامَهُ ضربَ زيدٌ) ونحو: (أضاربٌ غلامَهُ زيدٌ)، أضاربٌ غلامَ أخيهِ زيدٌ).

الثاني: أن يكون الضمير مرفوعاً بـ (نعِمَ) وبابِه، نحو قوله تعالى: (بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا) الكهف:٥٠، وقوله تعالى: (سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ) الأعراف: ١٧٧، وقوله تعالى: (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ) الكهف: ٥.

الثالث: أن يكون الضمير مرفوعاً بأول الفعلين المتنازعين، نحو (قاما وقعدَ أخواك) فإن الألف راجعة إلى الأخوين.

الرابع: أن يكون الضمير مجرور بـ (رُبَّ) نحو: (رُبَّهُ صديقاً يعينُ على الشدائِد).

الخامس: أن يُبدل منهُ المفسر، نحو (ضربتهُ زيداً)

السادس: أن يُخبر عن الضمير بالمفسِر، نحو قوله تعالى:(قَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا) الأنعام:٢٩، أي ما الحياة إلّا حياتنا الدنيا.

السابع: ضمير الشأن، فإنّ مفسرهُ الجملة بعده نحو قولهُ تعالى: (قل هو الله احد) الإخلاص:١، وقوله تعالى : (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ)

الحج:٤٦.

ومن أغراض تقديم الضمير على المرجع ((قصد التفخيم والتعظيم في ذكر ذلك المفسر بأن يذكروا أولاً شيئاً مبهماً حتى تتشوق نفس السامع إلى العثور على المراد بِه ثم يفسروه فيكون أوقع في النفس، وأيضاً يكون ذلك المفسر مذكوراً مرتين بالإجمال أولاً والتفصيل ثانياً، فيكون آكد))[٤].

فإن تأخر المفسر عن الضمير فهو إيضاح بعد الإبهام ((ليرى المعنى في صورتين، أو ليكون بيانُه بعد التشوق إليه، لأنه يكون ألذ للنفس وأشرف عندها، واقوى لحفظها وذكراها))[٥].

ورأى الجرجاني ((أنّ الشيء إذا أضمر ثم فُسر كان ذلك أفخم لهُ من أن يُذكر من غير تقدمة))[٦]، فضمير الغائب لابُد أن يكون لهُ مرجع، وهذا المرجع إن كان لفظياً أو معنوياً يتقدم عليه وجوباً، وإن كان حكمياً يتأخر عنه وجوباً، والأصل في مرجع الضمير أن يكون سابقاً على الضمير وجوباً، وقد يُهمل هذا الأصل لحكمةٍ بلاغية))[٧].

وقد أشار الطاهر بن عاشور إلى معظم مواضع تقدم الضمير على المرجع في تفسيره التحرير والتنوير وكما يأتي:

أولاً: ضمير الشأن

إن استعمال ضمير الشأن هو من أساليب الإضمار والتفسير إذ يعد من الملبسات التي أساسها الإضمار والمرجع، فيتقدم ضمير الغائب على المرجع فيحصل اللبس، ثم يؤتى بما يُفسره وعندها يزول اللبس وكل ذلك، لأجل التفخيم والتعظيم[٨].

وهو لازم الإفراد لأن مضمون الجملة بعده يفسره، ومضمون الجملة شيء مفرد وهو نسبة الحكم للمحكوم عليه وذلك لا تثنية فيه ولا جمع، ويسميه البصريون ضمير الشأن والحديث إذا كان مذكراً وضمير القصة إذا كان مؤنثاً[٩].

وضمير الشأن والقصة يكون في محل رفع ونصب لاتصاله بالعوامل الرافعة والناصبة، وهو على اختلاف أنواعه إنّما يَرِد على جهة المبالغة في تعظيم تلك القصة وتفخيم شأنها، وتحصيل البلاغة فيه جهة إضماره أولاً وتفسيره ثانياً، لأن الشيء إذا

كان مبهماً فالنفوس تكون متطلعة إلى فهمه ولها تشوق إليه، ولأجل ما فيه من الاختصاص بالإبهام فلا يكاد يرد إلّا في المواضع البليغة المختصة بالفخامة[١٠].

وقد تناول ابن عاشور في تفسيره ضمير الشأن من ناحيتين هما:

١-ضمير الشأن المستعمل للمذكر

ومن ذلك: قوله تعالى: (وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُم) البقرة: ٨٥، قال ابن عاشور إن جملة(وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُم) ((صدرت بضمير الشأن للاهتمام بها وإضمار أن هذا التحريم أمر مقرر مشهور لديهم))[١١].

وكان الزمخشري قد جوز أن يكون الضمير (هو) ضمير شأن أو أن يكون ضميراً مبهماً، عندما قال: (((هو) ضمير الشأن ويجوز أن يكون مبهماً تفسيره إخراجهم))[١٢].

أما الرازي فيرى في الضمير (هو) وجهين[١٣]:

الأول: أن يكون ضمير القصة والشأن، كأنّه قيل والقصة محرمٌ عليكم إخراجهم.

الثاني: أنه كناية عن الإخراج أعيد ذكره توكيداً.

فيما رأى أبو حيان أنّه ضمير الشأن بقوله ((وارتفاع (هو) على الابتداء وهو ضمير الشأن، والجملة بعدهُ خبر وإعرابها أن يكون (إخراجهم) مبتدأ، و(محرم) خبراً، وفيه ضميرٌ عائدٌ على الإخراج إذا النية به التأخير))[١٤].

لكن الكوفيين ذهبوا إلى أن خبر(هو) قوله (محرم) و(إخراجهم) مرفوع بهِ مفعولاً لم يسم فاعله لأنّ ((الخبر المتحمل ضميراً مرفوعاً لا يجوز تقديمه على المبتدأ، فلا يقال: (قائمٌ زيدٌ) وهو عند البصريين جائزٌ))[١٥].

ومنه قوله تعالى: (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) يوسف: ٢٣.

وأوضح ابن عاشور أنّ الضمير المجعول اسم (إنّ) في قوله: (لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) ضمير الشأن يفيد أهمية الجملة المجعولة خبراً عنه لأنّه موعظة شاملة، وبيّن أنّ يوسف(عليه السلام) أشار إلى أنّ إجابتها

أمّا راودته ظلمٌ، لأنّ فيها ظُلمَ. كليهما لنفسه بارتكاب معصية ممّا اتفقت الأديان على أنّها كبيرة، وظلم سيده الذي آمنه على بيته وآمنها على نفسها إذ اتخذها زوجاً له وأحصنها[١٦].

٢- ضمير الشأن المستعمل للمؤنث (ضمير القصة)

بيّن ابن عاشور أنّ هذا الضمير يقع بصيغة ضمير المفردة المؤنثة بتأويل القصة، ويختار تأنيثه إذا كان في القصة لفظ مؤنث كما في قوله تعالى: (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ) الحج: ٤٦، ويفيد هذا الضمير بإقبال المخاطب على ما يأتي من بعده [١٧].

ومن الآيات الكريمة التي أشار إليها ابن عاشور والمتضمنة ضمير القصة ما يأتي: قوله تعالى: (وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ) الأنبياء:٩٧.

أوضح ابن عاشور أنّه قد جيء في قوله: (فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُواً) بضمير القصة (هي) ليتحصل السامع على مجمل يفصله ما يفسر ضمير القصة[١٨].

ورأي ابن عاشور هذا يخالف رأي الزمخشري الذي رأى أن (هي) ((ضمير مبهم توضحه الأبصار وتفسره))[١٩].

والذي يبدو لي أنّ رأي ابن عاشور هو الأرجح لأنّ ضمير القصة والشأن يكون مفسره جملة توضح معناه وتكون خبراً له، وهذا ما نلمسه في الآية الكريمة، أمّا الضمير المبهم فإنّ مفسره يكون مفسراً وهو اسم ظاهر بمعناه يوضحه ويفسر حقيقته[٢٠].

ورأى الرازي ثلاثة أوجه في الضمير (هي) منها ما يوافق رأي ابن عاشور ومنها ما يوافق راي الزمخشري وهي ما يأتي[٢١]:

الأول: أن تكون كناية عن الأبصار، والمعنى: فإذا أبصر الذين كفروا شاخصةٌ أبصارهم، كنى عن الأبصار ثم أظهر هذا ما يوافق رأي الزمخشري.

الثاني: أن تكون عماداً ويصلح في موضعها (هو)، وجاز التأنيث لأنّ الأبصار مؤنثة وجاز التذكير للعماد.

الثالث أنّ الضمير للقصة بمعنى

فـإذا القصـة شـاخصةٌ، يعنـي القصـة أن أبصـار الذيـن كفـروا تشـخص عـن ذلـك، وهـذا يوافقـه رأي ابن عاشـور.

والوجـه الأول هـو ذهـب إليـه الفـرّاء (ت ٢٠٧ ه) بقولـه: ((وإن شـئت جعلـت (هـي) للأبصـار كنيـت عنهـا ثـم أظهـرت الأبصـار ليفسرهـا))[٢٢].

وجـاء الـرد عـلى الوجـه الثـاني بـأنّ ((ضمـير الفصـل لا يجـوز تقدمـه الوجـه الثـاني بـأنّ ((ضمـير الفصـل لا يجـوز تقدمـه، ولا يكـون خـبرة نكـرة ليـس بأفعـل التفضيـل))[٢٣].

ومنـه قولـه تعـالى : ﴿فَلَـمْ يَسِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُـونَ لَهُـمْ قُلُـوبٌ يَعْقِلُـونَ بِهَـا أَوْ آذَانٌ يَسْـمَعُونَ بِهَـا فَإِنَّهَـا لَا تَعْمَـى الْأَبْصَـارُ وَلَكِـنْ تَعْمَـى الْقُلُـوبُ الَّتِـي فِي الصُّـدُورِ﴾ الحـج (٤٦).

ذكـر ابـن عاشـور أنّ الضمـير في قولـه (فإنّهـا) ضمـير القصـة والشـأن أي: فـإنّ الشـأن والقصـة هـو مضمـون الجملـة بعـد الضمـير، أي لا تعمـى الأبصـار ولكـن تعمـى القلـوب، أي فـإنّ الأبصـار هـو الأسـماع طـرق لحصـول العلـم بالمبـصرات والمسـموعات والمـدرك لذلـك هـو الدمـاغ، فـإذا لم يكـن الدمـاغ عقـلاً كان المبـصر كالأعمـى والسـامع كالأصـم، فآفـة ذلـك كلـه هـو اختلال العقـل[٢٤].

وهـذا مـا ذهـب إليـه الزمخـشري حيث رأى أنّ الضمـير في (فإنّهـا) ضمـير الشـأن والقصـة يجـيء مذكـراً ومؤنثـاً، وأجـاز أن يكـون أيضـاً ضمـيراً مبهـماً يفسره (الأبصـار) وفي (تعمـى) ضمـير راجـع إليـه[٢٥].

وكذلـك أبـو حيـان رأى أنّ الضمـير في (فإنّهـا) ضمـير القصـة مفـسر بالجملـة بعـده، إذ قـال ((والضمـير في (فإنّهـا) ضمـير القصـة، وحسـن التأنيـث هنـا ورجحـه كـون الضمـير ولـه فعـل بعلامـة التأنيـث وهـي التـاء في (تعمـى) ويجـوز في الـكلام التذكـير))[٢٦].

وأوضـح الدكتـور فاضـل السـامرائي أن الضمـير في قولـه (فإنهـا لا تعمـى الأبصـار) مـن الضمائـر المفـسرة بـما بعدهـا، والتـي تفيـد الإيضـاح بعـد الإبهـام[٢٧].

ثانيا- الضمير المبهم

وهـو الضمـير الـذي لا يعلـم مـا يعنـي بـه إلاّ بـما يتلـوه مـن بيانـه لأنّ الخـبر يـدل عليـه ويبينّـه[٢٨].

فيكون خبره اسمًا ظاهراً بمعناه يوضحه ويفسر حقيقته، فكأنّهما شيء واحد من حيث المعنى[٢٩].

ومن الآيات الكريمة التي استشهد بها ابن عاشور والتي ورد فيها الضمير المبهم ما يأتي:

قوله تعالى: (وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) الأنعام(٢٩).

رأى ابن عاشور في قوله تعالى: (إن هيّ) إن: نافية للجنس والضمير بعدها مبهم يفسره ما بعد الاستثناء المفرغ، والقصد من إبهامه الإيجاز اعتماداً على مفسره.

وأوضح أنّ الضمير لما كان مفسراً بنكرة فهو في حكم النكرة، وليس هو ضمير قصة وشأن لأنّه لا يستقيم معه معنى الاستثناء[٣٠].

وهذا ما أشار إليه الزمخشري عندما رأى أنّ الضمير (هي) ((لا يُعلم ما يُعني بهِ إلّا بما يتلوه من بيانه، وأصلهُ إنّ الحياة (إلاّ حياتنا الدنيا) ثم وضع (هي) موضع الحياة لأنّ الخبر يدل عليها ويبينها ... والمعنى لا حياة إلّا هذه الحياة)[٣١].

وأوضح الزركشي أنّ الضمير (هي) ضمير مجهول يلزمه التفسير بمفرد وجيء به مؤنثاً لأنّ معناه مؤنث[٣٢].

وقوله تعالى: (إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) المؤمنون ٣٧.

ذكر ابن عاشور أنّ الضمير (هي) عائد إلى ما لم يسبق في الكلام بل عائد على مذكور بعده قصداً للإبهام ثم التفصيل ليتمكن المعنى من ذهن السامع، وهذا من مواضع عود الضمير على ما بعده إذا كان ما بعده بياناً له، ومبيّن الضمير هنا قوله: (إِلَّا حَيَاتُنَا) فيكون الاسم الذي بعده (إِلَّا)عطف بيان عن الضمير، والتقدير: (إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا) .

وأوضح ابن عاشور أنّ هذا الضمير ليس ضمير القصة والشأن لسببين هما:

الأول: عدم صلاحية المقام له.

الثاني: لأنّ دخول (إن) النافية عليه يأبى من جعله ضمير الشأن، إذ لا معنى أن يقال: لا قصة إلّا حياتنا، فدخلت عليه (إن) النافية للجنس لأنّه في معنى اسم الجنس لتبيينه باسم الجنس وهو حياتنا)، فالمعنى:

ليست الحياة إلّا حياتنا هذهِ، أي لا حياة غيرها[٣٣].

وهذا الرأي لابن عاشور يوافق رأي الرازي عندما رأى أنّ الضمير (هي) في قوله تعالى: (إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا) ((ضمير لا يعلم ما معنى به إلّا بما يتلوه من بيانه، وأصله: إنّ الحياة إلّا حياتنا الدنيا، ثم وضعه هي موضع الحياة، لأنّ الخبر يدل عليه والمعنى: لا حياة إلّا هذه الحياة))[٣٤].

ومنه قوله تعالى: (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآَنٌ مُبِينٌ) يس(٦٩).

ذكر ابن عاشور((أنّ ضمير (هو) عائد إلى (ذكرٌ) في قوله (إلّا ذكرٌ) الذي هو مبين، وهذا من مواضع عود الضمير على متأخر لفظا ورتبةٌ لأنّ البيان كالبدل))[٣٥].

ثالثا- الضمير المرفوع بـ (نِعْمَ) وبابه هو فاعل (نِعْمَ) و(بئس) وما جرى مجراهما عندما يكون ضميراً مستتراً مفسراً بنكرة بعده منصوبة على التمييز، لأنّ هذا التمييز هو المعاد المتأخر المفسر للضمير.

وهذا الضمير يكون مفرداً، والنكرة بعدة تزيل إبهامه وتبيّن المراد منه لأنّه لم يسبق له مرجع ولذلك تعرب تمييزاً نحو (نعمَ رجلاً صديقنا)، فـ (نِعمَ) فعل ماضي فاعله ضمير مستتر تقديره (هو) يعود على (رجلاً)، ونحو قوله تعالى: (بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا) الكهف ٥٠أي بئس هو، أي البدل بدلاً[٣٦].

ويلحق ب (نعم) و(بئس) ما جرى مجراهما في المدح والذم (ساء) وكل فعل ثلاثي يجوز أن يبني منه فعل على (فَعُلَ) لقصد المدح والذم كـ (شَرُفَ) و(لَؤُمَ)[٣٧].

وأشار ابن عاشور في هذا الموضوع إلى آيات كريمات من قوله تعالى: (وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا) النساء: ٣٨.

ذكر ابن عاشور أنّ الضمير المستتر في (ساء) إن كان عائداً إلى الشيطان فـ (ساء) بمعنى بئس والضمير فاعلها و(قرينا) تمييز للضمير أي: فساء قريناً له[٣٨]. وهذا ما أشار إليه أبو حيان عندما قال إنّ (ساء) هنا ((بمعنى بئس للمبالغة في الذم، وفاعلها على مذهب البصريين ضمير عام و(قريناً

تمييز لذلك الضمير))[٣٩].

وفي كون (ساء) فالآية الكريمة من باب (بئس) قال الآلوسي: ((يحتمل أن يكون على بابها بتقدير (قد))) كقوله تعالى: (وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) النمل:٩٠[٤٠].

ومنه قوله: (مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآَبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا) الكهف: ٥.

ذكر ابن عاشور أنّ فعل(كَبُرَتْ) بضم الباء أصله الإخبار عن شيء بضخامة جسمه، ويستعمل مجازاً في الشدة والقوة في وصف من الصفات المحمودة والمذمومة على وجه الاستعارة، وهو هنا مستعمل في التعجيب من كبر هذه الكلمة في الشناعة بقرينة المقام.

وأوضح أنّه قد دلّ على قصد التعجيب منها انتصاب(كَلِمَةً) على التمييز، إذا لا يحتمل التمييز هنا معنى غير أنّه تمييز نسبة التعجب، وأضاف أنّه من أجل ذلك مثلوا بهذه الآية لورود (فَعُلَ) الأصلي والمحمول لمعنى المدح والذم في معنى نعم وبئس بحسب المقام.

وذكر أن الضمير في قوله: (كَبُرَتْ) يرجع إلى الكلمة التي دلّ عليها التمييز[٤١].

وهذا الذي ذكر يفهم من كلام الزمخشري: ((قرئ كَبُرت كلمةٌ وكلمةً بالنصب على التمييز والرفع على الفاعلية، والنصب أقوى وأبلغ، وفيه معنى التعجب كأنّه قيل ما أكبرها كلمةً))[٤٢].

ووافق ذلك رأي أبي حيان عندما رأى أنّ الضمير في قوله تعالى:(كَبُرَتْ كَلِمَةً) ليس عائداً على ما قبله، بل هو مضمر يفسره ما بعده وهو التمييز على مذهب البصريين))[٤٣].

وأجاز السمين الحلبي أن يكون فاعل كبرت مضمراً مفسراً بالنكرة بعده المنصوبة على التمييز ومعناه الذم[٤٤].

وقوله تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا) الكهف:٥٠.

ذكر ابن عاشور أنّ جملة (بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا) مستأنفة لإنشاء ذم إبليس وذريته باعتبار اتخاذ المشركين إيّاهم أولياء، أي بئس البدل للمشركين الشيطان وذريته، ((فقوله: (بَدَلًا) تمييز مفسر لأسم (بِئْسَ) المحذوف لقصد الاستغناء عنه بالتمييز على طريقة الإجمال ثم التفصيل))[٤٥].

رابعا الضمير في الفعل المهمل في التنازع:

التنازع عبارة عن توجه عاملين إلى معمول واحد نحو: (ضربتُ وأكرمتُ زيداً)، فكل واحد من (ضربتُ) و(أكرمتُ) يطلبُ (زيداً) بالمفعولية، وإنّ أحد العاملين يعمل في ذلك الاسم الظاهر والآخر يهمل عنه ويعمل في ضميره.

وجوز البصريون والكوفيون إعمال كل واحد من العاملين في ذلك الاسم الظاهر ولكن اختلفوا في الأولى منهما، فإذا أعمل أحد العاملين في الظاهر وأهمل الآخر عنه فيجب إعمال المهمل في ضمير الظاهر، ويلزم الإضمار إذا كان مطلوب الفعل مما يلزم ذكره كالفاعل أو نائبه، ولا فرق في وجوب الإضمار حينئذ بين أن يكون المهمل الأول أو الثاني فنقول: (يُحسنان ويسيء إبناك)، (يُحسنُ ويسيئان إبناك)[٤٦].

وبينّ ابن هاشم أن لا خلاف بين النحويين في جواز إعمال أي من العاملين وقال: ((وإنّما الخلاف في المختار، فالكوفيون يختارون إعمال الأول لسبقه والبصريون يختارون إعمال الآخر لقربه))[٤٧].

ورأى الرضي إنّ تأخر المفسر لفظاً في باب التنازع على مذهب البصريين بعيد لأنّ مجوز تأخير المفسر لفظاً ومعنى غرض تفخيم المفسر وهو معدوم في هذا الباب[٤٨].

وممّا أشار إليه ابن عاشور في تقديم الضمير على مفسره في باب التنازع: قوله تعالى: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الألباب) ص:٢٩.

قال ابن عاشور: ((وضمير(لِيَدَّبَّرُوا) عائد إلى(أُولُو الألباب) على طريقة الإضمار للفعل المهمل عن العمل في التنازع والتقدير ليدبر أولوا الألباب آياته ويتذكروا))[٤٩].

المبحث الثاني

عدم التطابق بين الإضمار والمرجع

من مُلبسات الإضمار مع عدم التطابق بينهما سواء أكان ذلك في الإفراد والتثنية والجمع أم في التذكير و التأنيث أم في العاقل و غير العاقل، فالتطابق واجب بين الضمير ومرجعه وفق حالات وضعها النحويون، وقد تكون المطابقة جائزة وقياسية في مواضع يحكمها السياق أو المقام، وفي ذلك يكون الأمر للمتكلم الخبير وحسن تصرفه، وعلى حسب المناسبة التي قد تتحكم بقراره [٥٠].

وقد وردت في القرآن الكريم ضمائر في مواضع متعددة لا تطابق مرجعها، فخرّج النحويون والمفسرون ذلك بأنّ الكلام يكون في معنى كلام آخر فيحمل ذلك على المعنى، أو أن يكون للكلمة معنى يخالف لفظها فيحمل الكلام على المعنى دون اللفظ[٥١].

ومن النحويين الذين اهتموا بالحمل على المعنى ابن جنّي (ت ٣٩٢ ه) الذي قال فيه ((أعلم أنّ هذا الشرج عور من العربية بعيد، ومذهب نازح فسيح قد ورد به القرآن وفصيح الكلام منثوراً ومنظوماً، كتأنيث المذكر، وتذكير المؤنث، وتصور معنى الواحد في الجماعة، والجماعة في الواحد وفي حمل الثاني على لفظ قد يكون عليه الأول أصلا كان ذلك اللفظ أو فرعاً))[٥٢].

أما الحمل على اللفظ فقد ورد كثيراً في الكلام العربي لأنّهُ يُمثّل الأصل فيه فإنّ ((الأصل مطابقة المعنى للفظ))[٥٣]، وهذا يتضح في قول الرضي: ((وإنّما كان كذلك لأنّ اللفظ أقرب إلى تلك العبارة المحمولة عليها من المعنى، إذ هو وصل إلى المعنى))[٥٤].

فإذا جرى الحمل ((على اللفظ والمعنى في كلام واحد فالأحسن أن تقدم الحمل على اللفظ ثم تحمل بعد ذلك على المعنى))[٥٥].

إنّ عدم التطابق بين الضمير ومرجعه لا يُعدّ فرقاً لقواعد النحاة ولا مخلاً بفصاحة المتكلم وبلاغته، لكنّه يشكل لبساً تتضح دوافعه بمجرد التوصل إلى أسبابه وأعراضه ومسوغاته.

وتعرّض الطاهر بن عاشور لمواضع

عـدَم التطابـق بـين الإضـمار والمرجـع في القـرآن الكريـم بالـشرح المسـتفيض ذاكـراً الأسـباب والأعـراض والمسـوغات التـي دعـت إلى ذلـك، وسـأورد المواضـع تلـك مقسَّـمةً بـين الآتي:

أولاً: عـدم التطابـق في الأفـراد والتثنيـة والجمع:

عـزا ابـن عاشـور عـدم التطابـق بـين الضمـير ومرجعـهِ في الإفـراد والتثنيـة والجمـع إلى الأسـباب والأغـراض الآتيـة:

١. مراعاة اللّفظ:

ومـن الآيـات القرآنيـة الكريمـة التـي روعـي فيهـا اللفـظ والتـي أشـار إليهـا ابـن عاشـور مـا يـأتي: قولـه تعـالى: (وَيَقُـولُ الَّذِيـنَ كَفَـرُوا لَسْـتَ مُرْسَـلًا قُـلْ كَفَـى بِـاللهَّ شَـهِيدًا بَيْنِـي وَبَيْنَكُـمْ وَمَـنْ عِنْـدَهُ عِلْـمُ الْكِتَـابِ) الرعـد: ٤٣.

قـال ابـن عاشـور إنَّ ((الموصـول في (وَمَـنْ عِنْـدَهُ عِلْـمُ الْكِتَـابِ) يـراد بـه جنـس مـن يتّصـف بالصلـة، والمعنـى: وكلّ مـن عندهـم عـلى الكتـاب، وإفراد الضمـير المضـاف إليـهِ (عنـد) لمراعـاة لفـظ (مَـن)))[٥٦].

وهـذا الـرأي لابـن عاشـور لم يوافـق رأي الـرازي الـذي رأى أنّ قولـه تعـالى (وَمَـنْ عِنْـدَهُ) يعنـي والـذي عنـده علـم الكتـاب[٥٧]. فهـو لا يـرى عـدم تطابـق بـين الضمـير ومرجعـه.

٢. مراعاة المعنى:

ومـن ذلـك: قولـه تعـالى: (وَلْتَكُـنْ مِنْكُـمْ أُمَّـةٌ يَدْعُـونَ إِلَى الْخَـيْرِ وَيَأْمُـرُونَ بِالْمَعْـرُوفِ وَيَنْهَـوْنَ عَـنِ الْمُنْكَـرِ وَأُولَئِكَ هُـمُ الْمُفْلِحُـونَ) آل عمـران(١٠٤).

ذكـر ابـن عاشـور أنّ ضمـير (يدعـون) ((جـاء للجميـع لأنّ الأمـة هـي الجماعـة والطائفـة كقولـه تعـالى: (كُلَّـمَا دَخَلَـتْ أُمَّـةٌ لَعَنَـتْ أُخْتَهَـا) الأعـراف(٣٨)، وأصـل الأمـة في كلام العـرب الطائفـة مـن النـاس التـي تـؤم قصـداً مـن نسـب أو موطـن أو ديـن أو مجمـوع ذلـك))[٥٨].

٣.مراعاة اللفظ والمعنى:

ومن ذلك:

قولـه تعـالى: (بَـلَى مَـنْ أَسْـلَمَ وَجْهَـهُ للهَّ وَهُـوَ مُحْسِـنٌ فَلَـهُ أَجْـرُهُ عِنْـدَ رَبِّـهِ وَلَا خَـوْفٌ عَلَيْهِـمْ وَلَا هُـمْ يَحْزَنُـونَ) البقـرة(١١٢).

قـال ابـن عاشـور: ((وجمـع الضمـير في قولـه: (وَلَا خَـوْفٌ عَلَيْهِـمْ وَلَا

هُـمْ يَحْزَنُونَ)اعتبـاراً بعمـوم (مـن)، كـما أفـرد الضمـير في قولـه: (بَـلَى مَـنْ أَسْـلَمَ وَجْهَـهُ للهِ وَهُـوَ مُحْسِـنٌ) اعتبـاراً بإفـراد لفـظ (مـن)، وهـذا مـن تفنـن العربيّـة لدفـع سـآمة التكـرار))[٥٩].

وهـذا مـا أشـار إليـه أبـو حيـان الـذي أضـاف أنّ ((هـذا هـو الأفصـح وهـو أن يبـدأ بالحمـل عـلى اللّفـظ ثـم بالحمـل عـلى المعنـى))[٦٠]. ومنـه قولـه تعـالى: ((أفمـن كان عـلى بينـةٍ مـن ربَّـه ... أولئـك يؤمنـون بـه))(١٧) هـود.

ذكـر الطاهـر بـن عاشـور أنّ ((إفـراد ضمائـر (كان عـلى بينـة مـن ربَّـه) مراعـاة للفـظ مَـن الموصولـة، وذلـك عـلى أحـد اسـتعمالين، والجمـع في قولـه (أولئـك يؤمنـون) مراعـاة لمعنـى (مَـن) الموصولـة، وذلـك اسـتعمال آخـر))[٦١].

وهـذا المذكـور هـو المفهـوم ممّـا ذكـرهُ الـرازي وهـو أنّ الـذي وصفَـهُ الله تعـالى بأنّـهُ عـلى بيّنـةٍ مـن ربّـهِ هـو النبي (ﷺ)، أو المـراد بـه مـن آمـن مـن اليهـود كعبـد الله بـن سـلام و غـيره، ورأى أنّ الـرأي الثـاني هـو الأظهـر لقولـه تعـالى في آخـر الآيـة (أولئـك يؤمنـون بـه) بصيغـة الجمـع[٦٢].

٤. مراعاة الحال المشبّهة:

ومن ذلك:

قولـه تعـالى: (مَثَلُهُـمْ كَمَثَـلِ الَّـذِي اسْـتَوْقَدَ نَـارًا فَلَـمَّا أَضَـاءَتْ مَـا حَوْلَـهُ ذَهَـبَ اللهُ بِنُورِهِـمْ وَتَرَكَهُـمْ فِي ظُلُـمَاتٍ لَا يُبْـصِرُونَ) البقـرة (١٧).

رأى ابـن عاشـور أنّ الضمـير في قولـهِ: (بِنُورِهِـمْ)، جـاء بصيغـة الجمـع مـع كونـه بلصـق الضمـير المفـرد في قولـه (مـا حولـه) ((مراعـاة للحالـة المشـبّهة وهـي حـال المنافقـين لا للحـال المشـبه بهـا وهـي حـال المسـتوقد الواحـد، عـلى وجـه بديـع في الرجـوع إلى الغـرض الأصـلي وهـو انطـماس نـور الأيـمان منهـم))[٦٣].

وذكـر الزمخـشري أنّ في عـود ضمـير الجمـع في قولـه:(بِنُورِهِـمْ) وجهـين: الأول: أن يكـون معـاده المنافقـين، وهـذا يطابقـهُ رأي ابـن عاشـور.

الثـاني: أن يكـون معـادَهُ (الَّـذِي اسْـتَوْقَدَ نَـارًا) حمـلاً عـلى المعنـى. وأضـاف أن توحيـدَ الضمـير في(حَوْلَهُ) حمل عـلى اللفـظ[٦٤].

وتابـع أبـو حيـان الـرأي الثـاني للزمخـشري في عـود ضمـير الجمـع على(الَّـذِي اسْـتَوْقَدَ) حمـلاً عـلى

المعنى[٦٥].

٥. مراعاة الحال المشبه به:

ومن ذلك:

قوله تعالى: (أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ) البقرة (١٩).

رأي ابن عاشور أنّ قوله تعالى (أَوْ كَصَيِّبٍ) تقديره كفريق ذي صيّب أي كقوم، ودلَّ على هذا التقدير قوله: (يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ) ، كذلك قوله: (يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ) في الآية الكريمة: (يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) البقرة:٢٠، وأضاف أنّ الضمير في قوله:(بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ گ)، يعود إلى أصحاب الصّيب المشبَّه حال المنافقين لأنّ الإخبار بإمكان إتلاف الأسماء والأبصار يناسب أهل الصيّب المشبّه بحالهم بمقتضى قوله: (يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ) وقوله: (يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ)[٦٦].

وهذا ما ذهب إليه الزمخشري حين قال إنّ المعنى ((او كمثل ذوي صيب والمراد: كمثل قومٍ أخذتهم السماء على هذه الصفة فلقوا منها ما لقوا))[٦٧]

وهذا يفهم أيضاً من قول الرازي ((شبَّهَ المنافقين في حيرتهم وجهلهم بالدين بهؤلاء الذين وصفهم، إذا كانوا لا يرون طريقة ولا يهتدون))[٦٨].

٦. إرادة العموم:

ومن ذلك: (وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ) البقرة (٤٨).

ذكر ابن عاشور أنّ الضمير في قوله: (وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ) عائد إلى النفس الثانية، لأنّ تنكير النفس في الموضعين وهو في حيّز النفي يفيد عموم النفس وأي لا يغني أحدٌ كائناً من كان، فلا تغني عن الكفار آلهتهم ولا صلحاؤهم[٦٩].

وقد وافق هذا الرأي لابن عاشور رأي الزمخشري حين ذكر أنّ قوله تعالى: (وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ) يعني ((ما

دلّت عليهِ النفس المنكّرة من النفس الكثيرة، والتنكير بمعنى العباد والأناسي))[٧٠].

وتابع أبو حيان الزمخشري عندما رأى أنّ الضمير في قولهِ: (هُمْ) جاءَ مجموعة على معنى النفس ((لأنّها نكرة في سياق النفي فتعمّ))[٧١].

ورأى أيضاً أنّ هناك سبباً آخر ورود ضمير الجمع وهو مناسبة الفواصل بقوله: ((وحَسُن الحمل على المعنى ، كون ذلك في آخر فاصلة فيحصل بذلك التناسب في الفواصل بخلاف أن لو جاء (ولا تُنصر) إذ كان يفوت التناسب))[٧٢].

ومنهم من أعاد ضمير الجمع إلى النفس الثاني ولكن ليس بسبب وقوعها في سياق النفي كما رأى الزمخشري وتبعهُ ابن عاشور ولكن إلى ما تدلُّ هي عليهِ من النفوس الكثيرة فلا يكون مِمّا تقدّم ذكره معنى بدلالة لفظ آخر[٧٣].

٧. إرادة الجنس:

ومن ذلك: قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) البقرة: ٢٩.

ذكر ابن عاشور أنّ السماء مشتقة من السمو وهو العلو، واسم السماء يطلق على الواحد وعلى الجنس من العوالم العليا التي هي فوق العالم الأرضي ((والمراد به هنا الجنس بقرينة قوله: (فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ) إذ جعلها سبعاً، والضمير في قوله (فَسَوَّاهُنَّ) عائد إلى السماء) باعتبار إرادة الجنس لأنّه في معنى الجمع))[٧٤].

وقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) النساء: ١٣٥.

رأي ابن عاشور أنّ تثنية الضمير في قوله: (فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا) ((لأنّه عائد إلى (غَنِيّاً أو فَقيراً) باعتبار الجنس، إذ ليس القصد إلى فرد معين ذي غنى، ولا فرد معين ذي فقر، بل في هذا الجنس وفي ذلك الجنس))[٧٥]، وذلك ما أشار إليه البيضاوي بقوله:((والضمير في (بهما) راجع لما

دلّ عليه المذكور، وهو جني الغني والفقير لا إليه وإلاّ لواحد))[٧٦].

٨. تقدير مضاف محذوف:

ومن ذلك: قوله تعالى: (وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ) الاعراف:٤.

ذكر ابن عاشور أنّ ((المعنى: وكم من أهل قريةٍ مشركين أهلكناهم جزاء على شركهم))[٧٧].

وعن حذف المضاف (أهل) في الآية الكريمة ذكر الزمخشري أنّه لا يقدر قبل (قرية) أو قبل الضمير في (أَهْلَكْنَاهَا) لأنّه لا حاجة لذلك في الموضعين لأنّ القرية تهلك كما يهلك أهلها، وإنّما يقدر قبل الضمير في(فَجَاءَهَا) لقوله:(أَوْ هُمْ قَائِلُونَ))[٧٨].

أمّا أبو حيان فهو لا يسلم بوجود مضاف محذوف عاد عليه ضمير الجمع ورأى أنّ الضمير في قوله: (أَهْلَكْنَاهَا)عائد على معنى (كم) لأنّ لفظها مفرد ومعناها جمع[٧٩].

وقد اوفق رأي الآلوسي رأي الزمخشري عندما ذكر أن ضمير الجمع في الآية الكريمة اكد على المحذوف المعلوم فيما قبل، و الذي كثيرا ما يلتفت إليه[٨٠].

٩. الإيجاز:

منه قوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَّ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَّ عَزِيزٌ غَفُورٌ) فاطر:٢٨.

جيء بضمير المفرد في(أَلْوَانُهُ) رغم أنّ المعاد مجموع لأنّ (من) تبعيضية، والمعنى: أنّ المختلف ألوانه بعض الناس ومجموع المختلفات كلّه هو الناس كلهم، وكذلك الدواب والأنعام، وهو نظم دقيق دعا إليه الإيجاز))[٨١].

وهذا ما أشار إليه الزمخشري بقوله: (وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ) يعني ومنهم بعض مختلف ألوانه))[٨٢].

١٠.التأويل:

ومنه قوله تعالى: (إِنَّ اللهَّ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) فاطر:٤١.

قال ابن عاشور((وأسند فعل(زَالَتَا) إلى السموات والأرض على تأويل السموات بسماء واحدة)[٨٣].

١١. التخفيف:

ومنه قوله تعالى: (وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ) ص:٢١. قصد بالخصم في الآية الكريمة المثنى لوجود قرينة في الآية اللاحقة: (قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ) ص: ٢٢.

وقد رأى ابن عاشور أنّ ((ضمير الجمع في(تَسَوَّرُوا) مراد به المثنى، والعرب يعدلون عن صيغة المثنى إلى الجمع إذا كانت هناك قرينة لأنّ في صيغة التثنية ثقة لندرة استعمالها)) (٨٤).

ثانياً: عدم التطابق في التذكير والتأنيث

الأصل هو تطابق الضمير مع مرجعهِ في التذكير والتأنيث، ولكن قد يتم الخروج عن هذه القاعدة فيحصل عدم التطابق لأسباب نحوية أو لأغراض بلاغية. والأصل في الأسماء التذكير، التأنيث فرع عليه، قال سيبويه: ((لأنّ الأشياء كلها أصلها التذكير ثم تختص بعده، فكل مؤنث شيء، والشيء يذكر، فالتذكير أول، وهو أشد تمكناً من المعرفة لأنّ الأشياء إنّما تكون نكرة ثم تعرف، فالتذكير قبل، وهذا أشد تمكناً عندهم، فالأول أشد تكمناً عندهم)) (٨٥).

أمّا الفعل فلا يؤنث وقد تلحقه علامة التأنيث لتأنيث الفاعل، فالعلامة (التاء) لا تلحقهُ الفاعل مؤنثً كقولنا (قامتْ هنَّد) فالفعل لم يكن في القياس تأنيثه فهو مفيدٌ للمصدر الدال على الجنس أسبق شيء إلى التذكير (٨٦).

والمؤنث قد يكون حقيقياً أو مجازياً، فإذا أسند الفعل الماضي إليه لحقته تاء ساكنة تدل على كون الفاعل مؤنثاً، ولا فرق في ذلك بين الحقيقي والمجاز نحو (قامتْ هندُ) و(طلعتِ الشمسُ) (٨٧).

ولأنّ من الأسماء ما لا يحمل تذكيره أو تأنيث حقيقي ولذلك يجوز تأويلها بالمذكر والمؤنث (٨٨).

والأسباب النحوية والأعراض البلاغية التي شخصها ابن عاشور والمؤدية إلى عدم التطابق بين الضمير والمرجع في التذكير والتأنيث والتي بمعرفتها يزول اللبس في الآيات القرآنية والناتج من عدم التطابق ما يأتي:

١. مراعاة اللفظ :

ومن ذلك: قوله تعالى: (وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ) المائده:٤٣.

قال ابن عاشور إنّ ((الضمير (فيها) عائد إلى التوراة فتأنيثه مراعاة لاسم التوراة وإن كان مسماها كتاباً، ولكن صيغة (فعلاة) معروفة في الأسماء المؤنثة مثل (موماة)))[٨٩].

وهذا ما أشار إليه الرازي حين قال إنّ (التوراة) أُنِّثَ ((لأن الأمر فيه مبني على ظاهر اللفظ))[٩٠].

٢.مراعاة المعنى:

ومن ذلك: قوله تعالى: (وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) البقرة: ٧٢-٧٣.

فقد جاء(نَفْسًا) بصيغة المؤنث أما الضمير العائد عليها (الهاء) في(اضْرِبُوهُ) فجاء بصيغة المذكر، ((فالنفس الواحد من الناس لأن صاحب نفس أي روح وتنفس، والنفس الذات، قال تعالى: (يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) النحل:١١١))[٩١].

وهذا ما ذهب إليه الزمخشري بقوله: ((والضمير في(اضْرِبُوهُ) إما أن يرجع الى (النفس) والتذكير على تأويل الشخص و الانسان وإما الى القتل))[٩٢].

٣. مراعاة اللفظ والمعنى:

ومن ذلك: قوله تعالى: (مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) فاطر:٢.

فضمير (لها) و ضمير (له) في الآية الكريمة عائدان على (ما) من قوله: (مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ) فقد ((روعي في تأنيث أحد الضميرين معنى (ما) فإنه اسم صادق عليه(رَحْمَةٍ) وقد بين بها، وروعي في تذكير الضمير الآخر لفظ (ما) لأنّه لفظ لا علامة تأنيث فيه))[٩٣].

وهذا الرأي لابن عاشور يوافق رأي الزمخشري الذي قال ((فإن قلت: لم انث الضمير أولا ثم ذكر أخرة وهو راجع في الحالين إلى الاسم المتضمن معنى الشرط؟ قلت: هما لغتان: الحمل على المعنى وعلى اللفظ،

والمتكلم على الخيرة فيهما، فأنت على معنى الرحمة، وذكر على أنّ لفظ المرجوع عليه لا تأنيث فيه، ولأن الأول فسّر بالرحمة فحسن اتباع الضمير التفسير، ولم يفسر الثاني فترك على أصل التذكير))[٩٤].

٤. حذف مضاف:

ومنه قوله تعالى: (بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا * إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا) الفرقان:١١-١٢.

فالسعير هو الالتهاب وهو فعيل بمعنى مفعول أي مسعور، وهو معامل معاملة المذكر لأنه من أحوال اللهب ((وأجري على السعير ضمير(رَأَتْهُمْ) بالتأنيث التأويل السعير بجهنم إذ هو علم عليها بالغلبة وذلك على حذف مضاف، أي ذات سعير))[٩٥]، فقد يكون العلم بالغلبة معرفً بـ (ال) وقد يكون مضافاً[٩٦].

وجاء رأي ابن عاشور موافقاً لرأي الزمخشري الذي ذكر أنّ السعير هو النار الشديدة الاستعار، وأنّه اسم من أسماء جهنم[٩٧].

٥. مراعاة المضاف إليه:

ومن ذلك: قوله تعالى: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) آل عمران: ١٠٣.

ذكر ابن عاشور أنّ ((الضمير في (مِنْهَا) يجوز أن يكون لـ(شَفَا حُفْرَةٍ) وعاد عليه بالتأنيث. لاكتساب المضاف التأنيث من المضاف إليه)) (٩٨).

وشروط اكتساب المضاف التأنيث من المضاف إليه هي(٩٩).

- أن يكون المضاف صالحة للاستغناء عنه .
- أن يكون المضاف بعض المضاف إليه.
- أن يكون المعنى مشتملاً عليه.

وقد وافق رأي ابن عاشور رأي الزمخشري القاضي بجواز أن يكون الضمير في (مِنْهَا)عائدا إلى(شَفَا) وأنت لإضافته إلى الحفرة، وشفا الحفرة وشفتها طرفها بالتذكير والتأنيث[١٠٠].

وذهب الرازي في أحد ثلاثة آراء له مذهب الزمخشري حين قال: ((إنّ شفا الحفرة وشفتها طرفها، فجاز أن يخبر عنه بالتذكير والتأنيث))[١٠١].

وتابعهما أبو حيان حين جوز عود الضمير في (مِنْهَا) على الشفا لأنّ الشفا مضاف إلى مؤنث[١٠٢].

وخلف تلك الآراء بشأن عود الضمير على المضاف ابن عطية قائلاً: ((وليس الأمر كما ذكروا لأنهّ لا يحتاج إلى هذه الصناعة إلاّ لو لم يجد معاداً للضمير إلاّ الشفا وهنا معنى لفظ مؤنث يعود الضمير عليه، ويعضده المعنى المتكلم فيه، فلا يحتاج إلى تلك الصناعة))[١٠٣].

٦. تحقق المعرفة:

ومنه قوله تعالى: (إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) آل عمران: ٣٥- ٣٦.

كانت امرأة عمران تظن أنّ الذي في بطنها ذكر فصدر منها النذر مطلقاً عن وصف الذكورة وإنّما كانوا يقولون: إذا جاء ذكر فهو محرر ((وأنت الضمير في قوله (فَلَمَّا وَضَعَتْهَا) وهو عائد إلى(مَا فِي بَطْنِي) باعتبار كونه انكشف ما صدقه على أنثى))[١٠٤].

وذكر الزمخشري أيضاً أنّ الضمير في (وَضَعَتْهَا) عائد إلى (مَا فِي بَطْنِي) وقال: ((إنّما أنّثَ المعنى لأنّ ما في بطنها كان أنثى في علم الله أو على تأويل الحبلة أو النفس أو النسمة))[١٠٥].

والذي يبدو لي أنّ رأي ابن عاشور موافق لما ذهب اليه الزمخشري بأن تأنيث الضمير جاء لتحقق المعرفة عند الله تعالى بأنّ ما في بطنها أنثى، لكنّي أرى أنّ قول الزمخشري: (لأنّ ما في بطنها كان أنثى في علم الله) أبلغ من قول ابن عاشور: باعتبار كونه انكشف على ما صدقه أنثى)، فإنّه تبارك وتعالى هو القائل: (إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) آل عمران:٥-٦.

الحمل على الضد:

ومنه قوله تعالى: (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) الانفال:٦١.

ذكر ابن عاشور أنّ (((لِلسَّلْمِ) بفتح السين وكسرها ضد الحرب وحق لفظه التذكير ولكنّه أنّث حملاً على ضدّه (الحرب)))[١٠٦].

وهذا ما ذهب إليه الزمخشري بقوله: ((والسلم تؤنث تأنيث نقيضها وهو (الحرب)))[١٠٧].

ثالثا- عود ضمير العاقل على غير العاقل:

الأصل أن يكون الضمير مطابقة لمرجعه، فإن عاد ضمير العقلاء على مرجع مما لا يعقل فذلك خلافاً للقاعدة ((فالأصل في المفسر أن يكون- في غير ضمير الشأن- متقدماً على الضمير ومذكوراً قبله ليبينّ معناه أولاً ويكشف المقصود منه ثم يجيء بعده الضمير مطابقة له فيما يحتاج للمطابقة ... فيكون خالياً من الإبهام والغموض، ويسمى ذلك المفسر الموضح مرجع الضمير))[١٠٨].

وقد ورد في مواضع عدة في القرآن الكريم عدم تطابق بين الضمير ومرجعه، فعاد ضمير العاقل الأسباب وأعراض مختلفة.

فقد تكون الأسباب نحوية كما في قوله تعالى: (وَأَذَانٌ مِنَ اللهَّ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللهَّ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهَّ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) التوبة: ٣.

فأعاد نون جمع المؤنث في (فيهن) على أربعة حرم (الشهور) وهي مما لا يعقل[١٠٩].

فالمرجع إذا كان جمع تكسير مفرده مذكر غير عاقل كما في الآية الكريمة أو مؤنث غير عاقل جاز في الضمير أن يكون مفرداً مؤنثاً أو أن يكون نون النسوة الدالة على الإناث، ويؤثر الضمير المفرد المؤنث إذا كان المراد من جمع التكسير الدلالة على الكثرة، ويؤتى بنون النسوة اذا كان المراد على القلة[١١٠].

وقد يكون عدم التطابق لأغراض بلاغية متعددة، وأشار الطاهر بن عاشور في تفسيره (التحرير والتنوير) إلى تلك الأسباب والأعراض عند

تناولـه الآيـات القرآنيـة الكريمـة بالتفسـير، وهـي كـما يـأتي:

١. التصغير

ومنـه قولـه تعـالى: (وَقَالُـوا اتَّخَـذَ اللهُ وَلَـدًا سُـبْحَانَهُ بَـلْ لَـهُ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَـهُ قَانِتُـون) البقرة: ١١٦.

ذكـر ابـن عاشـور أن (مـا) مـن صيـغ العمـوم تقـع عـلى العاقـل وغـيره وعـلى الجمـوع، وقيـل (مـا) تغلـب أو تختـص بغـير العقـلاء و(مـن) تختـص بالعقـلاء، وربّـما اسـتعمل كل منهـما في الآخـر، وهـذا هـو المشـتهر بـين النحـاة وإن كان ضعيفـاً.

وأوضـح أنّ قوله تعـالى :(قانتـون) جاء في الآيـة الكريمـة بجمـع المذكـر السـالم المختـص بالعقـلاء تغليبـاً لأنهّـم قنوت عـن إرادة وبصـيرة تنزيـلاً للعقـلاء في كونهـم مـن صنـع الله بمنزلـة مسـاوية لغيرهـم. مـن بقيـة الموجـودات تصغـيراً لشـأن كل موجـود[١١١].

وهـذ مـا أشـار إليـه الزمخـشري بقولـه ((وكأنـه جـاء بـ (مـا) دون (مـن) تحقـيراً لهـم وتصغـيراً لشـأنهم))[١١٢].

وأكثـر مـا تسـتعمل (مـا في غـير العاقـل وقـد تسـتعمل في العاقـل ومنـه قولـه تعـالى: (وَإِنْ خِفْتُـمْ أَلَّا تُقْسِـطُوا فِي الْيَتَامَـى فَانْكِحُـوا مَـا طَـابَ لَكُـمْ مِـنَ النِّسَـاءِ مَثْنَـى وَثُـلَاثَ وَرُبَـاعَ فَـإِنْ خِفْتُـمْ أَلَّا تَعْدِلُـوا فَوَاحِـدَةً أَوْ مَـا مَلَكَـتْ أَيْمَانُكُـمْ ذَلِـكَ أَدْنَـى أَلَّا تَعُولُـوا) النسـاء:٣.

وقولهـم: (سـبحان مـا يسـخركن لنـا) و(سـبحان مـا يسـبح الرعـد بحمـده) واسـتعمال (مـا) في العاقـل في ثلاثـة مواضـع: الأول: أن يختلـط العاقـل مـع غـير العاقـل. الثـاني: أن يكـون أمـره مبهـماً عـلى المتكلـم. الثالـث: أن يكـون المـراد صفـات مـن يعقـل[١١٣].

٢. التوبيخ

ومنـه قولـه تعـالى: (قَالُـوا وَهُـمْ فِيهَـا يَخْتَصِمُـونَ * تَـاللهِ إِنْ كُنَّـا لَفِـي ضَـلَالٍ مُبِـينٍ * إِذْ نُسَـوِّيكُمْ بِـرَبِّ الْعَالَمِـينَ) الشـعراء: ٩٦-٩٨.

قـال ابـن عاشـور إنّ ((ضمـير الخطاب في (نُسَـوِّيكُمْ) موجـة إلى الأصنـام، وهـو مـن توجيـه المتنـدم الخطـاب إلى الـشيء الـذي لا يعقـل وكان سـبباً في الأمـر الـذي جـرّ إليـه الندامـة بتنزيلـه منزلـة مـن يعقـل ويسـمع، والمقصـود مـن ذلـك المبالغـة في توبيخ نفسـه[١١٤].

وكان الزمخـشري قـد ذكـر أنّ المخاطبـين يجـوز أن يكونـوا الأصنـام

بقوله: ((يجوز أن ينطق الله الأصنام حتى يصح التفاؤل والتخاصم)) (١١٥).

وخالف الرازي رأي الزمخشري عندما رأى أنّ قوله تعالى:(إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) ليس خطاباً للأصنام وأنّ إحياءها في النار غير جائز لأنّهُ لا ذنبَ لها بأن عبدَها غيرها ((فالأقرب أنّهم ذكروا ذلك لما رأوا صوَرها على وجه الاعتراف بالخطأ العظيم وعلى وجه الندامة لا على سبيل المخاطبة)) (١١٦). يلاحظ ممّا تقدم أنَّ المتّفق عليهِ في الآراء السابقة أنَّ الغرض من خطاب أهل النار للأصنام هو توبيخ أنفسهم، لكنّ الخلاف في وجود تلك الأصنام حقيقةٌ في النار من عدمِه.

والذي يبدو لي أنّ رأي الرازي هو الراجح لما جاءَ بهِ من دلائل هي الأقرب إلى واقع الحال.

٣. التهكم:

ومنه قوله تعالى: (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) البقرة (١٧١).

ذكر ابن عاشور أنّ ضمير الجمع في (يَعْقِلُونَ) راجع إلى الأصنام ((ومجيء الضمير للعقلاء تهكم بالمشركين لأنهّم جعلوا الأصنام في أعلى مراتب العقلاء)) (١١٧).

ورأى البيضاوي أنّ ((تمثيلهم في دعائهم الأصنام بالناعق في نعقهِ وهو التصويت على البهائم، وهذا يغني الإضمار ولكن لا يساعده قولهُ إلّا دعاءً ونداءً لأنّ الأصنام لا تسمع إلّا أن يُجعل ذلك من باب التمثيل المركّب)) (١١٨). والتهكم إنّما يكون عن شدة الغضب، ومن أمثلته أيضاً قوله تعالى: (فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) آل عمران (٢١)، فالبشارة إنّما تورَدُ في الأمور السارّة اللّذيذة، وقد وردت هنا في عكسها تهكّماً بهم وغضباً عليهم (١١٩).

٤. التأويل

ومنه قوله تعالى: (وجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آَنِيَةٍ * لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ) الغاشية: ٢-٦، قال ابن عاشور إنّ ((ضمير (لهم) عائد على (وجُوهٌ) باعتبار تأويله بأصحاب الوجوه، ولذلك جيء به ضمير جماعة

المذكّر، والتذكير تغليب للذكور على الإناث))[١٢٠].

وهذا المذكور هو المفهوم من قول الرازي: ((المراد بالوجوه أصحاب الوجوه وهم الكفّار، بدليل أنّه تعالى وصف الوجوه بأنّها خاشعة وذلك من صفات المكلّف، لكن الخشوع يظهر في الوجه فعلقة بالوجه لذلك))[١٢١].

٥.التغليب

ومنه قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا للهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ) النحل (٤٨).

ذكر ابن عاشور أنّ جملة (وَهُمْ دَاخِرُونَ) في موضع الحال من (ظِلَالُهُ) لأنّهُ في معنى الجمع لرجوعه إلى (مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ)، وجاء الضمير بصيغة الجمع الخاصة بالعقلاء تغليباً لأنّ في جملة الخلائق العقلاء وهم الجنس الأهم[١٢٢].

وهذا ما أشار إليه الزمخشري بقوله إنّ (دَاخِرُونَ) جُمعَ بالواو ((لأنَّ الدخور من أوصاف العقلاء، أو لأنّ في جملة ذلك من يعقِل فغُلّب)[١٢٣].

٦. الاعتقاد

قوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ) البقرة: ١٦٥.

أوضح ابن عاشور أنّ ((المراد بالأنداد هنا وفي مواقعه في القرآن الأصنام، وعاد عليه ضمير جماعة العقلاء المنصوب في قوله (يُحِبُّونَهُمْ) لأنّ الأصنام لما اعتقدوا إلوهيتها فقد صارت جديرة بضمير العقلاء))[١٢٤].

وهذا ما أشار إليه الزمخشري عندما ذكر أنّ الأنداد هي أمثال من الأصنام، لكنّه أجاز عودة الضمير في (يُحِبُّونَهُمْ) على الأنداد باعتبارهم من الرؤساء الذين كانوا يتبعونهم و يطيعونهم و ينزلونهم على أوامرهم و نواهيهم[١٢٥].

وهو المفهوم في قول الألوسي: (وضمير الجمع المنصوب راجع الى الأنداد فإن أريد بها الرؤساء فهو واضح، وإلاّ فالتعبير عنها العقلاء باعتبار ذلك الزعم الباطل أنهّم

أنـداد الله تعـالى) [١٢٦].

٧. الحالة الظاهرة

ومنـه قولـه تعـالى: (إِذْ قَـالَ يُوسُـفُ لِأَبِيـهِ يَـا أَبَـتِ إِنِّي رَأَيْـتُ أَحَـدَ عَـشَرَ كَوْكَبًـا وَالشَّـمْسَ وَالْقَمَـرَ رَأَيْتُهُـمْ لِي سَـاجِدِينَ) يوسـف:٤.

ذكـر ابـن عاشـور ((لمـا كانـت الحالـة المرئيـة مـن الكواكـب والشـمس والقمـر حالـة العقـلاء وهـي حالـة السـجود، نزلها منزلـة العقـلاء فأطلـق عليهـا ضمـير (هـم) وصيغـة العـلاء)) [١٢٧].

ورأى الدكتـور فاضـل السـامرائي أنّ ذلـك غـير العاقـل منزلـة العاقـل ((فجـاء بـ(سَـاجِدِينَ) جمـع مذكـر سـالم وهـو جمـع خـاص بالعقـلاء))[١٢٨].

٨. حذف المضاف

ومنـه قولـه تعـالى: (أَوْ كَصَيِّـبٍ مِـنَ السَّـمَاءِ فِيـهِ ظُلُـمَاتٌ وَرَعْـدٌ وَبَـرْقٌ يَجْعَلُـونَ أَصَابِعَهُـمْ فِي آذَانِهِـمْ مِـنَ الصَّوَاعِـقِ حَـذَرَ الْمَـوْتِ وَاللَّهُ مُحِيـطٌ بِالْكَافِرِيـنَ) البقـرة:١٩.

فقولـه (كَصَيِّـبٍ) غـير عاقـل ولم يَعُـد ضمـير العقـلاء في (يَجْعَلُـونَ) و(أَصَابِعَهُـمْ) عليـه وإنّـما عـاد عـلى مضـاف المحـذوف، فالتقديـر (كفريـق ذي صيـب) أي: كقـول[١٢٩]، وقـدر بعـض المفسريـن المضـاف المحـذوف (أصحـاب) أو (ذوي)، كـما قـدروا قبـل المضـاف المحـذوف مضافـاً آخـر يقتضـه العطـف عـلى الجملـة السـابقة وهـو (مثـل)، فيكـون التقديـر: كمثـل ذوي صيّـب[١٣٠].

الخاتمة ونتائج البحث

وبعـد فإنّ هـذا البحـث المنبسـط لا يعدّ ابتـكاراً مـن الباحـث بـل هـو دراسـة واسـتقصاء لمـا ورد في تفسـير التحريـر للعلامـة (ابـن عاشـور، في تطبيـق الموضـوع ممّـا ورد عنـد النحـاة في كتبهـم وهـو دلالـة الاضـمار وعلاقتـه بالمرجـع واذا كان البحـث مختـصراً في هـذا الموضـوع، إذجـاء في مبحثـين كـما أشرت في مقدمـة البحـث، فكانـت نتيجتـه أنّ العلامـة الطاهـر بـن عاشـور تعامـل مـع المضمـر وفقـاً لمـا يقتضـه السـياق القـرآني وبـرؤى تجديديـة تنـم عـن مـدى اطـلاع العلامـة عـلى آراء النحـاة فـكان رأيـه متضمنـاً لأغلـب آراء مـن سـبقه مـن النحـاة ولكـن بطريقـة تكشـف للقـارئ الدلالـة السـياقية والمعنويـة للضمير سـواء أكان

حاضراً أم مقدراً وعلاقته بمدلوله حيث كان يوضع بدلالة سياقية العلاقة بين الضمير والمرجع من ذلك على سبيل المثال ما ورد عند تفسيره لقوله تعالى: (إنه لا يفلح الظالمون) إذا يقول (ضمير التاء يفيد أهمية الجملة المجهولة خبراً عنه لأنّه موعظة شاملة) والحمد لله.

الهوامش:

١- ينظر: شذور الذهب: ١ / ١٣٦.
٢- همع الهوامع: ١ / ٢٢٠.
٣- ينظر: مغني اللبيب: ٢ / ٥٤٤، وشذور الذهب: ١ / ١٣٦- ١٣٧، وهمع الهوامع: ١ / ٢٢٠- ٢٢٤، والنحو الوافي: ١ / ٢٥٩- ٢٦١.
٤- شرح الرضي: ٢ / ٥.
٥- البرهان في علوم القرآن: ٢ / ٤٧٧.
٦- دلائل الإعجاز: ١٣٢.
٧- ينظر: النحو الوافي: ١ / ٢٥٥-٢٦٠.
٨- ينظر: شرح المفصل: ٣ / ١١٤.
٩- ينظر: همع الهوامع: ١ / ٢٢٤-٢٢٥.
١٠- ينظر: الطراز: ٢٧٠.
١١- التحرير والتنوير: ١ / ٥٧٢.
١٢- الكشاف: ١ / ١٤٨.
١٣- ينظر: التفسير الكبير: ٣ / ١٦٩.
١٤- البحر المحيط: ١ / ٨٥.
١٥- حاشية الشهاب: ٢ / ١٩٧.
١٦- ينظر: التحرير والتنوير: ١٢ / ٤٧.
١٧- ينظر: التحرير والتنوير: ٢١ / ١٠٧.
١٨- ينظر: المصدر نفسه: ١٧ / ١١١.
١٩- الكشاف: ٣ / ٢٠٦.
٢٠- ينظر: النحو الوافي: ١ / ٢٥٢- ٢٦٠.
٢١- ينظر: التفسير الكبير: ٢٢ / ٢٠٧، والبحر المحيط: ٦ / ٣١٥.
٢٢- معاني القرآن: ٢ / ٢١٢.
٢٣- حاشية الشهاب: ٦ / ٢٧٤.
٢٤- ينظر: التحرير والتنوير: ١٧ / ٢٠٩.
٢٥- الكشاف: ٣ / ٢٣٠.

٢٦- ينظر: البحر المحيط: ٦ / ٣٤٩.
٢٧- ينظر: الجملة العربية والمعنى: ٢٤٦.
٢٨- ينظر: الكشاف: ٣ / ٢٥٠.
٢٩- ينظر: النحو الوافي: ١ / ٢٦٠.
٣٠- ينظر: التحرير والتنوير: ٦ / ١٦٣.
٣١- الكشاف: ٣ / ٢٥٠، وينظر: البحر المحيط: ٤ / ١٠٩.
٣٢- ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٤ / ٢٩.
٣٣- ينظر: التحرير والتنوير: ١٨ / ٤٦.
٣٤- التفسير الكبير: ٢٣ / ٨٨، وينظر: البحر المحيط: ٦ / ٣٧٥.
٣٥- التحرير والتنوير: ٢٢ / ٦٩.
٣٦- ينظر: النحو الوافي: ١ / ٢٥٩.
٣٧- ينظر : شرح ابن عقيل : ٢ / ١٥٧.
٣٨- ينظر: التحرير والتنوير: ٤ / ١٢٧.
٣٩- البحر المحيط: ٣ / ٢٥٩.
٤٠- روح المعاني : ٥ / ٣٠.
٤١- ينظر: التحرير والتنوير: ١٥ / ١٤.
٤٢- الكشاف: ٣ / ٤٩ ، ينظر: التفسير الكبير: ٢١ / ٧١.
٤٣- البحر المحيط: ٦ / ٩٥.
٤٤- ينظر: الدر المصون : ٤ / ٤٣٣.
٤٥- التحرير والتنوير: ١٥ / ٨٤.
٤٦- ينظر: شرح ابن عقيل: ١ / ٤٩٤، ٤٩٦ ، ٤٩٩.
٤٧- شرح قطر الندى: ١٩٩.
٤٨- ينظر: شرح الرضي: ٢ / ٦.
٤٩- التحرير والتنوير: ٢٣ / ١٤٩.
٥٠- ينظر: النحو الوافي: ١ / ٢٦٨.
٥١- ينظر: ٤١.
٥٢- الخصائص: ٢ / ٤١١.
٥٣- الأشباه والنظائر: ٢ / ٣٦.
٥٤- شرح الرضي: ٢ / ١٣٩.
٥٥- معاني القرآن: ٣٥- ٣٦.
٥٦- التحرير والتنوير: ١٢ / ٢١١.
٥٧- ينظر: التفسير الكبير: ١٩ / ٦٢.
٥٨- التحرير والتنوير: ٣ / ١٧٩.
٥٩- التحرير والتنوير: ١ / ٦٥٧.
٦٠- البحر المحيط: ١ / ٥١١، وينظر: ١ / ٨٩.
٦١- التحرير والتنوير: ١١ / ٢٤.
٦٢- ينظر: التفسير الكبير: ١٧ / ١٦٨.
٦٣- التحرير والتنوير: ١ / ٣٠٤.
٦٤- ينظر: الكشاف: ١ / ٧٢.
٦٥- ينظر: البحر المحيط: ٢ / ٣٢٢، وتفسير الجلالين: ٥.
٦٦- ينظر: التحرير والتنوير: ١ / ٣١٢.
٦٧- الكشاف: ١ / ٧٦.
٦٨- التفسير الكبير: ٢ / ٧٧.
٦٩- ينظر: التحرير والتنوير: ١ / ٤٦٩.
٧٠- الكشاف: ١ / ١٢٩.
٧١- البحر المحيط: ١ / ٣٤٩.
٧٢- المصدر نفسه: ١ / ٣٤٩
٧٣- ينظر: أنوار التنزيل: ٢ / ١٥٧، والفتوحات الإلهية: ١ / ٥١، وحاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: ٢ / ١٥٧، ١٥٨.
٧٤- التحرير والتنوير: ١ / ٣٧٩.
٧٥- المصدر نفسه: ٤ / ٢٧٨.
٧٦- أنوار التنزيل: ١ / ٢٤٢.
٧٧- المصدر نفسه: ٨ / ١٨.

٧٨- ينظر: الكشاف: ٢ / ١٤٢.
٧٩- ينظر: البحر المحيط: ٤ / ٢٦٨، والحمل على المعنى : ١٠٢.
٨٠- ينظر: روح المعاني: ١ / ١٧٧.
٨١- المصدر نفسه: ٢٣ / ١٣١.
٨٢- المصدر نفسه: ٢٣ / ١٣١.
٨٣- التحرير والتنوير: ٢٢ / ١٨٠.
٨٤- المصدر نفسه: ٢٣ / ١٣١.
٨٥- الكتاب : ٣ / ٢٤١، وينظر: الخصائص: ٣ / ٢٤٢.
٨٦- ينظر: الخصائص: ٣ / ٢٤٤، وشرح المفصل : ٦ / ٩٦.
٨٧- ينظر: شرح ابن عقيل: ١ / ١٠٣.
٨٨- ينظر: شرح المفصل: ٥ / ١٠٣.
٨٩- التحرير والتنوير: ٥ / ١١٢.
٩٠- التفسير الكبير: ١١ / ١٠٢.
٩١- التحرير والتنوير: ١ / ٥٤٢.
٩٢- الكشاف : ١ / ١٤٢.
٩٣- التحرير والتنوير: ٢٢ / ١١٢.
٩٤- الكشاف : ٣ / ٦٢٠.
٩٥- التحرير والتنوير: ١٩ / ٢١.
٩٦- ينظر: شرح ابن عقيل: ١ / ١٧٥، ١٧٦.
٩٧- ينظر: الكشاف : ١ / ٣٤٨.
٩٨- التحرير والتنوير: ٣ / ١٧٨.
٩٩- ينظر: مغني اللبيب : ٢ / ٥١٤، والحمل على المعنى: ١٤٧.
١٠٠- ينظر: الكشاف : ١ / ٣٤٨.
١٠١- التفسير الكبير: ٨ / ١٥٢.
١٠٢- ينظر: البحر المحيط: ٣ / ٢٢.
١٠٣- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ١٣ / ٢٥٦، وينظر: الاتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال: ١٨٧، ١٨٦.
١٠٤- التحرير والتنوير: ٣ / ٨٥.
١٠٥- الكشاف: ٣١٣.
١٠٦- التحرير والتنوير: ٩ / ١٤٨.
١٠٧- الكشاف : ٢ / ٢٦٨، وينظر: التفسير الكبير: ١٥ / ١٥٧.
١٠٨- النحو الوافي: ١ / ٢٥٥.
١٠٩- ينظر: الاتقان في علوم القرآن: ١ / ٥٨٥.
١١٠- النحو الوافي: ١ / ٢٦٤.
١١١- ينظر: التحرير والتنوير: ١٩ / ١٦٣.
١١٢- الكشاف : ١ / ١٦٧، ١٦٨، وينظر: التفسير الكبير: ٤ / ٢٥.
١١٣- ينظر: شرح ابن عقيل: ١ / ١٤٠.
١١٤- التحرير والتنوير: ١٩ / ١٦٣.
١١٥- الكشاف : ٣ / ٣٦٨.
١١٦- التفسير الكبير: ٢٤ / ١٣٨.
١١٧- التحرير والتنوير: ٢ / ١١٣.
١١٨- انوار التنزيل: ١ / ١٠٠.
١١٩- ينظر: الطراز:٥٦٧.
١٢٠- التحرير والتنوير: ٣٠ / ٢٦٣.
١٢١- التفسير الكبير: ٣١ / ١٤٠.
١٢٢- ينظر: التحرير والتنوير: ١٣ / ٣٦.
١٢٣- الكشاف : ٢ / ٥٨٤.
١٢٤- التحرير والتنوير: ٢ / ٨٩.
١٢٥- ينظر: الكشاف: ١ / ١٩٢، والتفسير الكبير: ٤ / ٢٠٠.
١٢٦- المصدر نفسه: ١٢ / ١٣.
١٢٧- الجملة الربية والمعنى: ١٢٠.

١٢٨- ينظر: البحر المحيط: ١ / ٢٢٣، والتحرير والتنوير: ١ / ٣١٢.
١٢٩- ينظر: حاشية الشهاب : ١ / ٣٨٩، والفتوحات الإلهية: ١ / ٢٣.
١٣٠- الجملة الربية والمعنى: ١٢٠.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- الإتقان في علوم القرآن: لجلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي (ت٩١١ه) ،ط-١ دار ابن كثير دمشق ، ١٩٨٧ه
- الاشباه والنظائر في النحو، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: عبدالعال سالم مكرم ،ط-١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٤
- الانتصاف فيما تضمنهُ الكشاف من الاعتزال، لابن منير ناصر الدين المالكي، ط-١، دار المعرفة، بيروت، ١٤٢٣ه ، ٢٠٠٢م.
- انوار التنزيل واسرار التأويل: ناصر الدين ابو سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت٦٨٥)، ط-٥، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠١١م
- البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي(ت٧٩٤ه)، تحقيق يوسف المرعشي، ط-١، دار المعرفه، بيروت، ١٩٩٠م .
- تفسير البحر المحيط: لمحمد بن يوسف الشهير بابي حيان الأندلسي(ت٧٤٥ه)، تحقيق: عادل احمد عبد الموجود، ط-٢، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٧١م
- تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور ، ط-١، مؤسسة التاريخ، بيروت، لبنان(د، ت).
- تفسير الجلالين : جلال الدين محمد بن احمد المحلي، وجلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي، ط-١، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان ، ١٤٠٣ه – ١٩٨٣م
- التفسير الكبير: محمد فخرالدين بن صفاء الدين عمر الرازي، ط-١، دار الفكر للطباعة، بيروت، لبنان،٢٠٠٠م.
- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: الشهاب ،دار صادر، بيروت،(د. ت).
- الحمل على المعنى في العربية: لعلي عبدالله حسين العنكبي، رسالة ماجستير، كلية الاداب، جامعة بغداد، ١٩٦٨م.
- الخصائص: ابن جني : تحقيق محمد علي النجار، مطبعة دار الكتب المصرية، مصر(د، ت).
- الدار المصون في علوم الكتاب المكنون: شهاب الدين ابي العباس بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي (ت ٧٦٥ه)، تحقيق : محمد معوض، ط-١، دار الكتب العلمية، بيروت ، ١٤١٤ه-١٩٩٤م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: ابو الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي(ت١٢٧٠ه)، تحقيق: علي عبد الباري عطيه، ط-٤، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،

١٤٣٥ه-٢٠١٤م .
- شرح ابن عقيل على ألفيه ابن مالك: بهاء الدين عبدالله بن عقيل العقيلي (ت٧٦٩ه)، ط-٢، مطبعة عترت (د،ت)
- شرح الكافية: لرضي الدين محمد بن عبد الحسن الاستراباذي، (ت٦٨٨ه)، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان
- شرح المفصل: موفق الدين ابي البقاء يعيش بن علي بن يعيش الموصلي، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان (د ، ت).
- شرح شذور الذهب في معرفه كلام العرب: ابي محمد عبدالله جمال الدين بن هشام الانصاري المصري ،(ت٧٦١ه)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة المصرية، بيروت، ١٤٠٩ه -١٩٨٨م
- شرح قطر الندى وبل الصدى: ابو محمد عبدالله جمال الدين بن هشام الانصاري ، (ت:٧٦١ه)، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد، ط-٧، مطبعة امير ، ١٣٨٢ه.
- الطراز المتضمن لإسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز: يحيى بن حمزه بن علي بن ابراهيم العلوي اليمني، ط-١، دار الكتب العلمية، بيروت،-لبنان، ١٤١٥ه- ١٩٩٥م.
- الفتوحات الالهية لتوضيح تفسير الجلالين: سليمان بن عمر العجيلي الشهير بالجمل (ت١٢٠٤ه)، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة (د، ت).
- الكتاب: ابو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الملقب بسيبويه (ت١٨٠ه)، ط-٢، مؤسسة الاعلمي ، بيروت ، ١٩٦٧م
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل: ابي القسام جار الله محمد بن عمر الزمخشري الخوارزمي، مكتبة مصر، مصر العربية(د، ت).
- الكليات: ابو البقاء ايوب بن موسى العكبري الحسيني الكفوي (ت ١٠٩٤ه)، ط-٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩ه- ١٩٩٨م.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابي محمد عبد الحق بن عطية(ت٥٤١ه)، تحقيق: احمد صادق الملاح ، القاهرة ، ١٣٩٤ه- ١٩٧٤م.
- معاني القرآن : ابو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت٢٠٧ه)، ط-٣، عالم الكتب ، بيروت، ١٤٠٣ه-١٩٨٣م.
- مغني اللبيب عن كتب الاعاريب : ابن هشام الانصاري (ت٧٦١ه)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة المدني، القاهرة، (د. ت).
- النحو الوافي: عباس حسن، ط-١٦، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٧.
- همع الهوامع في شرح جميع الجوامع: جلال الدين عبدالرحمن بن ابي بكر السيوطي (ت٩١١ه)، ط-٣ ، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان(د. ت).

حولية المنتدى